بِسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ

مقدمة

من يقرأ في الشعر العربي وينظر في نصوصه ونماذجه الكثيرة يجد صورتين متقابلتين منذ العصر الجاهلي: صورة تقليدية تعتمد على رسوم وتقاليد كثيرة، وصورة أغان خالصة تعتمد على العزف والضرب على الآلات الموسيقية.

وتتخالف الصورتان في كثير من الجوانب، فالصورة الأولى صورة معقدة، ولعل خير ما يمثلها مطولات الشعر العربي في المديح والهجاء وما يتصل بهما، حيث نجد الشعراء يبالغون في صنع نماذجهم مبالغة أفضت بزهير في الجاهلية إلى أن يصنع المطولة من مطولاته في حول كامل، كما يقول الرواة، ومن أجل ذلك كانت تسمى مطولاته باسم الحوليات.

وقد اتخذت هذه المطولات على مر العصور صورة موروثة، إذ نجد الشعراء يبدءون فيها بوصف الأطلال وبكاء الدمن، ثم ينتقلون إلى وصف رحلاتهم في الصحراء وحينئذ يصفون إبلهم التي كانوا يجدون فيها جمالا، حين يريحون وحين يسرحون، ونراهم في أثناء ذلك يصفون مشاهد الصحراء وحيوانها. وما يزالون في هذه المقدمات حتى يخرجوا إلى الموضوع الذي ألفوا من أجله مطولاتهم، من مديح أو هجاء أو غيرهما. وقد حافظ العرب دائما على هذه الصورة في شعرهم التقليدي من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث.

وكان يقابل هذه الصورة من الشعر العربي صورة أخرى لم تكن مطولات، إنما كانت في أكثرها مقطوعات، ولم تكن تدور حول المديح والهجاء، وإنما كانت تدور غالبا حول الغزل ووقائعه، ولم تكن تقال لتنشد، وإنما كانت تقال لتغنى وتصحب بالعزف والضرب على الأدوات الموسيقية. ولعل خير اسم يمكن أن نطلقه على هذه الصورة هو اسم شعر الغناء أو الأغاني.

وهاتان الصورتان للشعر العربي استمرتا تتقابلان في عصوره المختلفة، وكانت صورة الأغاني أكثر من أختها التقليدية قابلية للتطور والتحول، بحكم اتصالها بالغناء والموسيقى ولغة الناس الشعبية، مما أحدث أخيرا في الأندلس الموشحات والأزجال على نحو ما هو معروف.

وقبل هذه الأزجال والموشحات كانت تحدث تطورات واسعة في الأغاني لا منذ العصر العباسي بل منذ العصر الأموي، إذ نهض لحجاز بالغناء نهضة كبيرة أثرت تأثيراً شديداً في الأغاني هناك. وهو تأثير امتد إلى كل شيء فيها، امتد إلى لغتها، إذ نرى الشعراء يتخذونها غالبا من لغة الناس المألوفة لأنهم يريدون أن يكونوا قريبين منهم، وامتد إلى موسيقاها، إذ نرى الشعراء يكثرون فيها من الزحافات والعلل، حتى يلائموا بين شعرهم وتقصيرات المغنين والمغنيات وتمديداتهم. وأيضاً فإنهم أخذوا يجزئون ويعدلون في صورة أوزانهم، حتى تحمل كل ما يريد المغنون من أصوات وغناء. وقد نظرت فإذا المدينة ومكة تتنافسان تنافساً شديدا في إحداث هذه الصورة والتطور بها تحت تأثير الغناء.

وقد أخذت أتتبع فن الغناء الذي كان له فضل التطور بأغاني الشعر حينئذ، فإذا المدينة هي التي برزت فيه، وإذا هي التي وضعت نظرية الغناء العربي التي نقرأ مصطلحاتها في كتاب الأغاني، حينئذ رأيت أن أؤخر الحديث عن مكة وما كان بها من نشاط في الغناء والأغاني حتى أتعرف على المدينة وعلى ما كان بها من هذا النشاط.

وإني أعترف بأن نصوصاً كثيرة صادفتني فسرت لي كل ما كنت أنشده في هذه. الدراسة. والله أسأل أن يلهمني لسداد والإخلاص. في الفكر والقول والعمل، وهو حسبي نعم الوكيل.

شوقي ضيف